صقر أبو فخر

خليل عز الدين الجمل: «مَن يذكر تلك الأيام؟»

لم يكن بين لبنان وفلسطين حتى أوائل العشرينيات من القرن المنصرم أي حدود البتة؛ فكان السكان يتنقلون بين البلدين بحرية تامة، ومن دون أي قيود. وحتى بعد انحسار الدولة العثمانية عن بلاد الشام في سنة ١٩١٧، ثم رسم الحدود بين لبنان وفلسطين، ظل الحراك البشري بين البلدين على ما هو عليه. ولمع كثيرون من اللبنانيين في فلسطين في شتى المجالات، وكان لهم شأن في السياسة والصحافة بالدرجة الأولى، وبرز منهم أعلام كبار، أمثال: نجيب نصار مؤسس مجلة "الكرمل"؛ وديع البستاني، أحد كبار المترجمين في تلك الحقبة، وأحد الذين ترجموا رباعيات الخيام عن الإنجليزية؛ نجيب عازوري صاحب كتاب "يقظة الأمة العربية"؛ جورج أنطونيوس صاحب كتاب "يقظة العرب"؛ عجاج نويهض مؤسس صحيفة "العرب". وعرفت فلسطين كثيراً من اللبنانيين الذين عاشوا في أفيائها وامتهنوا مهناً متنوعة كالتدريس، أمثال: رئيف خوري؛ زكي النقاش؛ جورج حنا؛ نخلة زريق، وآخرين. علاوة على ذلك كانت فلسطين موئلاً لبعض السياسيين اللبنانيين المجاهدين من عيار معروف سعد ومنير أبو فاضل وعلي ناصر الدين ورشيد طليع وفوزي القاوقجي، فضلاً عن غيرهم ممّن جاهد بالمال وبالموقف وحتى بالشعر أمثال إميل البستاني والأب بولس عبود والشاعر أسعد سعيد. لنتذكر أن المؤرخ الكبير نبيه أمين فارس هو فلسطيني من أصل لبناني، وأن سليمان ناصيف الذي رفض أن يتنازل عن شبر من أرضه هو أيضاً من أصل لبناني، وكذلك البطريرك أنطونيوس بطرس خريش الذي أمضى شبابه في حيفا وتأثر بأحداث فلسطين، وكانت له المواقف المشهودة في هذا الشأن. ولا ننسى طبعاً مطران العرب غريغوريوس حجار، الدمشقي أصلاً، والمولود في قيتولي القريبة من جزين، والفلسطيني الإقامة والهوى.

في خضم الأحداث التي عصفت بفلسطين منذ سنة ١٩٢٩ فصاعداً (هبّة البراق)، ثم الثورة الفلسطينية الكبرى (١٩٣٦ – ١٩٣٩)، وحتى الحرب الحاسمة التي قررت مصير فلسطين (١٩٤٧ – ١٩٤٨)، تقاطر على فلسطين المئات من المتطوعين اللبنانيين الذين شاركوا في النضال المسلح، وسقط منهم عشرات الشهداء أمثال حسين البنا من بلدة شارون في قضاء عاليه الذي استشهد في ثورة ١٩٣٦، وفواز خفاجة من بلدة جباع في قضاء الشوف الذي استشهد في فلسطين سنة ١٩٤٨، علاوة على الضابط محمد زغيب الذي استشهد في معركة المالكية سنة ١٩٤٨.

وبهذا المعنى لم يكن خليل عز الدين الجمل أول شهيد لبناني يسقط في سبيل فلسطين، وإنما كان أول شهيد لبناني يسقط في الثورة الفلسطينية المعاصرة التي أطلقت رصاصتها الأولى، مع انطلاقة "العاصفة" في ١٩٦٥/١/١. ولهذا، فإن

خليل عز الدين الجمل هو شوط جديد في سلسلة طويلة من الشهداء اللبنانيين الذين سقطوا في معمعان هذه الجلجلة الكبرى والمستمرة.

بيروت الستينيات

ولد خليل عز الدين الجمل في بيروت في سنة ١٩٥١ لوالد يدعى عز الدين الجمل، ووالدة اسمها وداد شهاب. درس المرحلة الابتدائية في المدرسة العصرية في بيروت، وأنهى المرحلة التكميلية (المتوسطة) في مدرسة المخلص المسائية، إذ كان يعمل في النهار في إحدى المكتبات إلى جانب أخيه الأكبر نبيل. وفي المكتبة، بين مئات الكتب ذات العناوين الفكرية والسياسية المتنوعة، تفتّح وعيه على قضية فلسطين، وعلى قضايا الكفاح العالمي في سبيل التحرر الوطني والاستقلال السياسي. ولا ريب في أن خليل الجمل تأثر بقوة بأخبار الثورات العالمية في فييتنام ولاوس وكمبوديا، وبأخبار النضال ضد العنصرية في جنوب إفريقيا، فضلاً عن الثورة الكوبية وثورات أميركا اللاتينية. ولا شك في أن أسماء قادة التحرر الوطني في العالم في تلك الحقبة كانت ماثلة في ذهنه آنذاك أمثال جمال عبد الناصر وغيفارا وأحمد بن بلة وفيديل كاسترو وهوشي منه وآخرين. وكانت بيروت في أواسط ستينيات القرن العشرين تغلي بالسياسة كالمرجل، وتعصف فيها جميع التيارات السياسية التي عرفها العالم العربي. وأبعد من ذلك، كانت رياح التغيير في أواسط ستينيات القرن المنصرم تهب على دول العالم كله، ومنها الدول العربية طبعاً، وتجلى ذلك في ثورة الطلاب في باريس (أيار/مايو ١٩٦٨) وفي ظهور اليسار العالمي الجديد، وحركات العنف الثوري. ولم تكن الشبيبة اللبنانية بعيدة عن هذا المناخ الملتهب بالتمرد والاحتجاج والغضب، وخصوصاً بعد هزيمة الخامس من حزيران/يونيو ١٩٦٧، وبعد سقوط المثال القوي المتمثل في جمال عبد الناصر، فرأت في العمل الفدائي الفلسطيني مقدمة أولى في سياق الرد على هزيمة ١٩٦٧، وفي سبيل بناء الجهد الثوري لإطاحة الحكومات العربية المسؤولة عن تلك الهزيمة المدوية. وفي هذا الميدان صار العمل الفدائي جزءاً من الحياة السياسية والثقافية في لبنان، ولا سيما أن الفلسطينيين كان لهم شأن كبير في الحياة السياسية اللبنانية؛ فالأحزاب القومية العربية والعلمانية في لبنان كانت تولي قضية فلسطين مكانة مركزية في خطابها وبرامجها وسياساتها. والمعلوم أن اثنين من الفلسطينيين أسسا "حركة القوميين العرب" هما جورج حبش ووديع حداد، وضم حزب البعث العربي الاشتراكي في صفوفه القيادية عدداً مهماً من الفلسطينيين، وكان للقضية الفلسطينية موقع مرموق لدى الحزب السوري القومي الاجتماعي والحزب الشيوعي اللبناني والحزب التقدمي الاشتراكي ومختلف المنظمات الناصرية. ثم إن عدداً من كبار الصحافيين والكتّاب في لبنان كانوا فلسطينيين، وهؤلاء كرسوا جهدهم لعرض قضية فلسطين والدفاع عنها في الصحافة أمثال: غسان كنفاني؛ نبيل خوري؛ شفيق الحوت؛ فاروق نصار؛ كنعان أبو خضرا؛ نجيب عزام؛ فواز ناجيا؛ نايف شبلاق؛ فايز صايغ؛ أنيس صايغ؛ وليد الخالدي... إلخ. ومن علامات الحضور القوي لقضية فلسطين في الحياة الثقافية اللبنانية أن مسرحية "مجدلون" لروجيه عساف ونضال الأشقر منعتها السلطات اللبنانية لأنها تعرضت بالنقد لتخاذل الحكومة اللبنانية أمام الاعتداءات الإسرائيلية المتمادية التي طاولت البلدات الحدودية التالية: حولا في ١٩٦٨/٥/١٢؛ ميس الجبل في ١٩٦٨/٦/١٥؛ المجيدية في ١٩٦٨/١٠/٢٧؛ وكان أن عمد الممثلون إلى عرض المسرحية في شارع الحمراء أمام مقهى "الهورس شو". وهذه المسرحية رأت في العمل الفدائي جزءاً من حركة التمرد والتغيير في العالم العربي.

المعركة والاستشهاد

في ١٩٦٨/٣/٢١ وقعت معركة بجميع

المقاييس في بلدة "الكرامة" بين الجيش الإسرائيلي وقوات الفدائيين ومدفعية الجيش الأردني. وقد أسفرت هذه المعركة عن إرغام الجيش الإسرائيلي على التراجع إلى مواقعه السابقة بعد أن خلّف ٢٨ قتيلاً و٩٠ جريحاً، وبعد أن ترك في أرض المعركة أربع دبابات مدمرة وخمس عربات وطائرة واحدة. ومع أن خسائر الفدائيين كانت كبيرة، إلاّ إن النتائج السياسية لمعركة المقاومة فاقت أي توقع؛ فقد نقلت حركة "فتح" من منظمة فدائية إلى حركة تحرر وطني، وجعلت الشبيبة العربية تتعلق بهذه الظاهرة الجديدة، وراحت جموعها تتدفق على مكاتب "فتح" في سورية والأردن. وكان خليل عز الدين الجمل أحد هؤلاء الشبان الذين وجدوا في المقاومة الفلسطينية مشروعاً للتحرر الوطني والاجتماعي معاً.

غادر خليل عز الدين الجمل بيروت إلى عمّان في ١٩٦٨/٣/٢٥، أي بعد معركة الكرامة مباشرة، والتحق بحركة "فتح"، بعدما ترك لأخيه نبيل ورقة جاء فيها: "أخي نبيل، سلامي لأهلك ولأمي. أرجوك لا تسأل عني. أنا بخير. سأعود". وفعلاً، عاد خليل الجمل... لكن، بطريقة لم يشهدها لبنان في تلك الحقبة؛ فقد استشهد في منطقة "تل الأربعين" في أغوار الأردن في ١٩٦٨/٤/١٠، بعدما أُصيب بشظية قذيفة معادية في أثناء عودته مع رفاقه من مطاردة قوة إسرائيلية.

شُيِّع خليل عز الدين الجمل من عمّان التي نُقل جثمانه منها بالبر إلى بلده الرمثا عند الحدود الأردنية ـ السورية، ثم جرى له وداع رسمي وشعبي حاشد في دمشق، وسار موكب جنازته نحو الحدود السورية ـ اللبنانية في بلدة المصنع.

الجنازة غير المسبوقة

ما إن وصل خبر استشهاده إلى بيروت، حتى انتشر بسرعة في أحياء العاصمة، واهتمت به الصحافة اللبنانية والقوى السياسية المحلية، وبدأ الاستعداد لاستقبال جثمان "أول شهيد لبناني في الثورة الفلسطينية المعاصرة"، فتجمعت مئات السيارات في الحازمية في ١٩٦٨/٤/٢٧، ثم سارت في موكب مترابط نحو المصنع ليكون راكبوها في استقبال الجثمان حين وصوله من دمشق. وواكب محافظ البقاع آنذاك جورج ساروفيم الجنازة حتى حدود محافظته، وفي تلك النقطة كان محافظ جبل لبنان ينتظر، بدوره، وصول الجنازة، فاستقبلها بصورة رسمية، وسار معها نحو بيروت. وفي بلدة الكحالة، التي اشتُهر بعض أبنائها لاحقاً بمعاداتهم العمل الفدائي، كان على رأس المشيعين النائب إميل مكرزل الذي استقبل الجنازة على صوت أجراس كنائس البلدة. وعلى طول طريق الشام، من المصنع إلى بيروت، كان النعش يتنقل على أكف المشيعين في كل بلدة مرت بها الجنازة، حتى وصل إلى الجامع العمري الكبير في وسط العاصمة، بالقرب من كنيسة مار جريس. وهناك صُلّي عليه بحضور الرئيس عبد الله اليافي والمفتي حسن خالد وشفيق الوزان وعدنان الحكيم، ثم سارت الجنازة مخترقة الحشود التي قُدِّر عددها بنحو ١٠٠,٠٠٠ شخص، من الجامع العمري إلى ساحة النجمة، ثم إلى ساحة رياض الصلح، فالباشورة، صعوداً إلى البسطة والمزرعة وقصقص فمقبرة الشهداء. واستغرق وصول النعش إلى مقبرة الشهداء خمس ساعات. وفي تلك الأثناء كانت الجامعات والمدارس توقفت عن التدريس، وانضم الطلاب إلى الجنازة. وكذلك نظم طلاب الجامعة الأميركية مسيرة طالبية كبيرة عبرت شارع فردان (شارع رشيد كرامي لاحقاً) نحو جامعة بيروت العربية كي تنضم إلى موكب الجنازة. وفي غمار هذه الحماسة كانت اليافطات التي رفعها المشيعون تحمل الشعارات التالية:

- "لبيكِ يا أرض العروبة فلسطين".
- "الكل في لبنان على استعداد للاستشهاد يا خليل".
- "أرض العروبة نار في وجه الصهيوني الغدار".

أخافت جنازة خليل عز الدين الجمل أوساطاً سياسية يمينية كثيرة في لبنان خشيت من أن يصبح الفلسطينيون قوة سياسية جارفة، فكان

الصدام الدامي في ٢٣ نيسان/أبريل ١٩٦٩ الذي انتهى إلى توقيع "اتفاقية القاهرة" برعاية الرئيس جمال عبد الناصر. وهذا ما جرى مرة ثانية في سنة ١٩٧٣، بعد الجنازة الكبرى للقادة الثلاثة الذين اغتالتهم إسرائيل (محمد يوسف النجار وكمال عدوان وكمال ناصر) في ١٠/٤/١٩٧٣، والتي سار فيها أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ شخص. وهذه الجنازة دقت ناقوس الخطر لدى أجهزة أمنية كثيرة، محلية وخارجية، فوقعت مصادمات كبيرة في ٢ أيار/ مايو ١٩٧٣ بين الجيش اللبناني والفدائيين انتهت إلى لا شيء، وكانت تمريناً على الحرب التي اندلعت لاحقاً في ١٣ نيسان/أبريل ١٩٧٥.

الحدث والصحافة

كان لاستشهاد خليل عز الدين الجمل ولجنازته المهيبة دوي كبير في الصحافة اللبنانية، فقد أفردت جميع الجرائد صفحاتها الأولى وعناوينها الرئيسية وافتتاحياتها لهذا الحدث. وخصت "الأنوار"، على سبيل المثال، الشهيد وعائلته وجنازته بأربع صفحات كاملة. وكرست الصحف اللبنانية طوال نحو عشرين يوماً، أي منذ ٢١/٤/١٩٦٨ إلى ما بعد ١٠/٥/١٩٦٨، معظم افتتاحياتها لخليل عز الدين الجمل ومغزى استشهاده قريباً من فلسطين، والمعاني السياسية التي حملها الشهيد حين اختار الانتماء إلى حركة "فتح"، فكتب رفيق خوري في مجلة "الأحد" (٢١/٤/١٩٦٨)، وجان عبيد في مجلة "الصياد" (٢٥/٤/١٩٦٨)، وغسان تويني في "النهار" (٢٧/٤/١٩٦٨)، والياس بدوي في "الحياة" (٢٧/٤/١٩٦٨)، وزهير عسيران في "الهدف" (٢٧/٤/١٩٦٨)، وغسان كنفاني في "الأنوار" (٢٨/٤/١٩٦٨)، وفوزي عطوي في "بيروت المساء" (٢٨/٤/١٩٦٨)، والياس مسّوح في "الهدف" (٢٩/٤/١٩٦٨)، وسامية الغني سلام في "اللواء" (٢/٥/١٩٦٨)، وسامية علم الدين في "اللواء" (٣/٥/١٩٦٨)، وسلوى صافي في ملحق "الأنوار" (٥/٥/١٩٦٨)، وسمير شاهين في "الأسبوع العربي" (٦/٥/١٩٦٨)، وجورج حنا في "الشعب" (٦/٥/١٩٦٨)، ووليد عوض في "اللواء" (١٠/٥/١٩٦٨)، وغيرهم كثيرون من الكُتّاب في مختلف الصحف اللبنانية، فضلاً عن الرئيس جمال عبد الناصر الذي أشار، في خطبة له في نيسان/ أبريل ١٩٦٨، إلى أهمية استشهاد شاب لبناني في صفوف الفدائيين الفلسطينيين في الأردن.

لا للذكرى بل للتذكر

بعد عدة أيام من جنازة خليل عز الدين الجمل اصطحب رفاق الشهيد والدته إلى بلدة إربد الأردنية، فزارت الموقع الذي استشهد ابنها فيه، والتقت رفاقه الذين قصّوا عليها وقائع المعركة التي سقط فيها الشهيد. وفيما بعد صدر مرسوم جمهوري لبناني بمنح الشهيد وسام الاستحقاق اللبناني، وفي ١/٣/١٩٩٩، وبعد مطالبات كثيرة، أُطلق اسمه على أحد شوارع بيروت في عهد المحافظ يعقوب الصرّاف ورئيس البلدية عبد المنعم العريس.

لقد انطوت ثلاثة وأربعون عاماً منذ أن استشهد خليل عز الدين الجمل، وفي هذه الحقبة سقط كثيرون جداً من رفاقه، ومن الذين ساروا على دربه، غير أن اسمه ظل متفرداً بريادته، ومثالاً لجيل تفتّح وعيه على هزيمة ١٩٦٧، وأراد ألاّ يخضع لعقابيل هذه الهزيمة، بل أن يتصدى لها ولمفاعيلها وتداعياتها. ■